سورة المؤمنون

مكية، وهي مع البسملة مئة وتسع عشرة آية وستة ركوعات

يقول القرطبي إن سورة "المؤمنون" كلها مكية بلا خلاف (تفسير القرطبي).

وعدد آياتها ١١٩ عند البصريين و١١٨ عند الكوفيين. ونحن أيضًا نرى أن عدد آياتها ١١٩، ولكن هذا يرجع إلى اعتبارنا البسملة جزءًا من كل سورة، في حين أن المفسرين الآخرين رغم إيمانهم بضرورة إبقاء البسملة داخل السورة لا يعتبرونها جزءًا منها؛ وعدم اعتبارهم البسملة جزءًا من السورة، رغم وجودها في المصحف، لهو أمر مضحك لا مبرر لـــه. فإننا نتفق مع الكوفيين فيما يتعلق بالآيات التي تلي البسملة بأنها ١١٨، أما عدد آيات هذه السورة كلها مع البسملة فهو ١١٩ آية.

بيد أن هذا الاختلاف بين الكوفيين والبصريين لا يعني أن هناك آية ناقصة أو زائدة في السورة في رأيهم، وإنما الواقع أن ما يعتبره أحد الفريقين آية واحدة يعدّه الفريق الآخر آيتين. فقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ آية كاملة عند البصريين، ولكن الكوفيين يرون أنها ليست آية كاملة، بل هي جزء من الآية التالية، ولذلك قالوا إن عدد آيات هذه السورة ليس ١١٩، بل ١١٨ آية.

وبما أن القسيسين المسيحيين يجهلون هذه الأمور، فقد استنتج بعضهم من أقوال مماثلة للمفسرين أن حفظ القرآن أمر مشكوك فيه، حيث يذكر البعض أن عدد آيات هذه السورة كذا، بينما يقول الآخرون إن عددها أقل من ذلك. ولكن هذا الاختلاف أو النقصان ليس حقيقيًّا كما أثبتُّ من قبل، وإنما الأمر الواقع أن أحد

الفريقين قد اعتبر جملة من القرآن الكريم آية كاملة نظرًا إلى مضمونها، بينما لم يعتبرها الفريق الآخر آية كاملة بل جزءًا من الآية التالية، وهذا ما أدى إلى الاختلاف في بيان عدد آيات بعض السور، دون أي نقصان في محتواها. فكلا الفريقين يسلّم بصحة كل لفظ من السورة، دون نقصان أو زيادة في محتوى القرآن كله. ولكن ماذا يفعل المرء تجاه هؤلاء المسيحيين الجاهلين الذين يدلون بآرائهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الفحص والتحري.

زمن نـــزولها: إن زمن نـــزول هذه السورة من حيث مضمونها هو قبيل الهجرة، فالعلامة جلال الدين السيوطي يعدّها آخر سورة نـــزلت بمكة. بينما يعتبرها البعض مدَنية أيضًا، ولكن قولهم هذا لا يساوي شيئًا عند جمهور العلماء.

يرى "ريفرند ويري" (R. Wherry) أن هذه السورة هي مما نـــزل بعد السنة السادسة أو السابعة قبل الهجرة.

(A comprehensive commentary on the Quran Vol.3 page 174)

ولكن الأصح أنها نـــزلت قبيل الهجرة لا بعدها، وإن لم تكن آخر سورة نـــزلت بمكة كما يقول السيوطي.

تركز هذه السورة خاصة على ثلاثة أمور: أولها أن المؤمنين هم المفلحون وأن زمن نجاحهم وشيك؛ وثانيها أداء الزكاة؛ وثالثها إقامة الصلاة. وهذه الأمور كلها وثيقة الصلة بالفترة المدَنية بوجه خاص، فكان هذا التركيز الخاص إشارة إلى أن زمن تحقق هذه الأمور قد اقترب. والحق أن قول "ويري" بأن هذه السورة قد نـــزلت في السنة السادسة أو السابعة مفيد لنا جدًّا، لأن التسليم برأيه يزيد هذه النبوءةَ القرآنية عظمةً. بيد أننا لا نستطيع تصديق رأيه هذا بالنظر إلى الروايات الإسلامية ومحتوى هذه السورة، وإن كان بإمكاننا القول إن هذه السورة قد نـــزلت قبل الهجرة بمدة وجيزة.

الترتيب والترابط: تتمثل الصلة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها في أن الله تعالى قد أمر المؤمنين من قبل في سورة الحج أن ينيبوا إليه تعالى، ويطيعوه لكي ينجحوا. عليهم أن يجاهِدوا بالسيف أوان الجهاد بالسيف، ويجاهِدوا بالدعوة في وقت الجهاد

بالدعوة. وقد أمرهم الله تعالى بالجهاد بالسيف تارة وبالدعوة تارة أخرى لأنه لم يجعل في الدين من حرج.. أي لا يسمح بالجبر على غير المؤمنين، كما لم يأمر المؤمنين بما يتنافى مع ضمائرهم.

ثم بين الله تعالى للمسلمين أنه لا بد لهم للقيام بالجهاد في الدين من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتمسك بأهداب الله تعالى بقوة بحيث لا ينفصل بعد ذلك الحبُّ الفريد عنهم. ولو فعلوا ذلك لنصرهم وأنجز لهم ما يريدون. علمًا أن الله تعالى قد بين في تلك الآيات أن الأمر مشروط، فإذا قام المؤمنون بتلك الأعمال أفلحوا ونجحوا وكان نصر الله حليفهم. أما هنا في سورة "المؤمنون" فقد أخبر الله تعالى أن مثل هذه الجماعة ستوجد بين المسلمين حتمًا، وستحرز النجاح يقينًا. وهذا يعني أنه ﷻ قد أعلن هنا أن الأمر الذي قد سلّم به من قبل نظريًّا واقعٌ حتمًا.

والحق أن هذه السورة استطراد على موضوع السور السابقة الرئيس، حيث تناولت السور السابقة تعليم المسيحية وأخطاءها وتصحيحها، أما هذه السورة فبيّنت، بالإضافة إلى الرد على تعليم المسيحية، أن الإسلام قد أخذ الآن مكان المسيحية، ليصلح ما فيها من أخطاء وعيوب، فيصعد بالإنسانية إلى الفلاح بسرعة، أما المسيحية فبما أنها قد انحرفت عن جادة التوحيد فلن تقدر الآن على أن تؤتي الإنسانيةَ ثمارًا سماوية كانت تطعمها في الماضي؛ فإن الله تعالى يعامل الناس وفق إيمانهم الذي في قلوبهم أو الذي يعملون بحسبه، وليس طبقًا لما يدّعون به بأفواههم.

ملخص محتواها: لقد بين الله تعالى في هذه السورة أن نجاح المؤمنين بالقرآن الكريم وشيك. (الآيتان ١-٢)

وعلامات هؤلاء المؤمنين الصادقين هي:

أولاً: أنهم لا يعبدون الله تعالى في الظاهر فقط.

ثانيًا: أنهم يتجنبون كل عمل لا يعود بنفع على أنفسهم أو قومهم أو بلدهم.

ثالثًا: أنهم يكونون جاهزين لكل نوع من التضحية من أجل رقي بلدهم.

رابعًا: أنهم يسدّون كل المنافذ التي تتسرب منها المساوئ إلى القلوب، ويهتمون بعفّتهم كل الاهتمام، بيد أنه لا حرج عليهم فيما يتعلق بزوجاتهم الحرائر منهن والمملوكات.

خامسًا: أنهم يؤدون ما أُلقيَ عليهم من مسؤوليات، ولا ينقضون العهود التي قطعوها مع الأمم الأخرى.

سادسًا: أنهم يحافظون على العبادات الجماعية على وجه الخصوص.. أي أنهم يعملون على تنمية المشاعر القومية أو الملّية جاعلين الفردية تابعة للملّة. وهؤلاء هم القوم الذين يرثون النعم التي وعد الله بها وسيحظون بالجنات التي وُعدها المؤمنون، وسيظلّون وارثين لها إلى أبد الآبدين.

هذا هو الخَلق الروحاني الذي يماثل الخَلق الجسدي تمامًا، إذ قد تم الخلق الجسدي للإنسان على هذا المنوال أيضًا. لقد بين الله تعالى أنه قد خلق الإنسان من خلاصة مُنتَجة من التراب.. أي من الأغذية التي تنبت في الأرض. ثم حوّلنا هذه الخلاصة إلى نطفة. ثم استقرّت النطفة في مكان مناسب لنموها. ثم جعلنا النطفة على شكل دم متجمد، ثم جعلنا الدم المتجمد قطعة من اللحم، ثم خلقنا فيها عظامًا، ثم كسونا العظام لحمًا، ثم تحول هذا الخَلق إلى شيء آخر.. أي أخذ صورة إنسان. (الآيات ٣-١٥)

ثم يخبرنا الله تعالى أنكم كما تموتون بعد الولادة الجسمانية لتُبعثوا يوم القيامة ثانية، كذلك يحدث في الخَلق الروحاني، حيث تُخلق الأمم ثم تموت، لتقوم مقامها أمم أخرى. (الآيتان ١٦-١٧)

ثم يذكر الله تعالى أنه قد قسم رقي الإنسان، سواء المادي أو الروحاني، سبعةَ أدوار - وقد سبق تفصيل ذلك في الآيات السالفة حيث قسم الله تعالى الخَلق الجسدي والمادي أيضًا سبعة أدوار - وأنه تعالى ليس بغافل عن الخلائق. (الآية: ١٨)

وأنـــزلنا من السماء ماء بقدر معين، ثم أسكنّاه في الأرض - أي أن الماء المادي والماء الروحاني كليهما ينـــزل بقدر معين - وإننا على ضياعه لقادرون.. أي أن

كون نـــزول التعليم من الله تعالى ليس وحده دليلاً على أنه لن يتعرض للفساد والخراب أبدًا (الآية ١٩).

وجعلنا لكم جنات من نخل وعنب، وأَنبتْنا لكم فيها ثمارًا كثيرة تأكلونها. وخلقنا شجرة الزيتون التي تنبُت في طور سيناء بزيت وطعام للآكلين – وقد ذُكر ذلك في آية سورة النور آية ٣٦ – وقد خلقنا لكم الأنعام التي فيها آية لكم. تشربون ما يخرج من بطونها أي لبنها، ولكم فيها منافع أخرى. فتأكلون لحومها وتركبون على ظهورها كما تركبون السفن.. أي كما أن الله تعالى قد خلق أشياء كثيرة تجلب الراحة في حياة الإنسان وتُطوِّرها، كذلك قد خلق تعالى أشياء مماثلة شتى لحياته الروحانية. فالذي يختار ما يريح حياته الجسمانية فقط ثم يترك ما يجلب لـــه الراحة في حياته الروحانية فليس بعاقل بل هو غبي أحمق. (الآيات ٢٠-٢٣)

ثم ضرب الله مثال نوح عليه السلام وبيّن أنه أيضًا بُعث من عنده تعالى ليهدي أهل زمنه إلى طريق الفلاح، وأنه لم يعلّمهم إلا أن الله تعالى واحد وليس ثمة إلهان. فكفَر به قومه، ولم تكن حجتهم إلا قولهم إنه بشر مثلنا لا أكثر من ذلك. (علمًا أن الناس قبل المسيح عليه السلام كفروا بأنبيائهم محتجين أنه بشرٌ فكيف جاءنا بشرٌ ليهدينا، أما بعد المسيح عليه السلام فقد صار الناس كافرين لأنهم قالوا ما دام ابن الله قد جاءنا فلا حاجة بنا إلى أي بشر الآن. مع أن الأجدر بالقبول والتصديق من يأتي من عند الله تعالى، سواء أتى حاملاً لقب "الله" أو لقب "ابن الله" أو لقب "النبي". إن القطيع إنما يستمع لنداء الراعي، سواء ناداه من المشرق أو المغرب أو الجنوب أو الشمال. وإن راعينا هو الله تعالى، وعلينا أن نستجيب لندائه أيًا كانت الشخصية التي ينادينا هو من خلالها).

ثم يذكر الله تعالى أن المعارضين يقولون إنه تعالى لو أراد لأنـــزل ملائكة بيننا.. أي لسنا مستعدّين لسماع قول بشر إذ لم نسمع بمثل هذا الادعاء من الأولين. (على المسيحيين أن يفكّروا هنا أنه لو كان ادعاؤهم صحيحًا فكيف يكون اعتراض هؤلاء باطلاً. الغريب أن الذين جاؤوا قبل المسيح عليه السلام كفروا بحجة أننا لم نسمع من الأولين قط بأن إنسانًا يكون أفضل من غيره من البشر، أما الذين كانوا في زمن المسيح عليه السلام فقالوا إننا لم نسمع عن أحد أنه ابن الله، أما الذين كانوا معاصرين

للرسول ﷺ فقالوا لم نسمع من أحد أنه يمكن أن يُبعث نبي خارج بني إسرائيل. من المؤسف أن الإنسان لم يزل على مدى التاريخ يبحث عن الأعذار الواهية، ولم يلبِّ نداء الله تعالى).

ويضيفون ويقولون: إن به مسًّا من الجنون، فتربّصوا حينًا وسترون مصيره. فدعا نوح ربه طالبًا عونه، فقال الله لـــه أن اصنعِ السفينة وفق أمرِنا ووحينا.. أي قَدِّمِ التعليم الذي يكون سبب نجاة لأهل هذا العصر. ثم إذا اشتدت المعارضة وحان العذاب فهَيِّئْ للناس كلهم الملاذ في هذه السفينة وأنقذْ أَهْلَك أيضًا، إلا من صدر قرارنا بصدده من قبل. فإذا استويت عليها فادعُ اللهَ تعالى: الحمد لك اللهم إذ نجيتنا من القوم الظالمين، فأَنـــزلنا الآن منـــزلاً نكون فيه في مأمن من هؤلاء الظالمين. ولو أن الناس تدبروا في حياة نوح لوجدوها آية عظيمة. (الآيات ٢٤-٣١)

ولم يزل الجنس البشري مستمرًا بعد ذلك، وظل الناس على الهدى لبعض الوقت، ثم تطرق إليهم الفساد، فبعثنا فيهم رسولاً من أنفسهم (أقول: لا بد للرسول أن يكون من جنس القوم الذين بُعث إليهم، إذ لو كان من جنس آخر، كما تدّعي المسيحية، فلا يمكن أن يكون أسوة لهم؛ إذ من المستحيل أن يقوم الإنسان بأفعال الأسد، كما يستحيل للأسد أن يعمل أعمال البشر. لا يمكن لابن الإنسان أن يقلّد ابن الله، ولا يمكن لابن الله - أي المسيح أو عُزير عليهما السلام- أن يفهم مشاكل ابن الإنسان). فأمَرهم رسولهم نوح أن لا يعبدوا إلا إلهًا واحدًا. (وهذا يعني أن الرسل بعد نوح أيضًا أخبروا عن إله واحد لا اثنين). فقال رؤساء قومه الذين كانوا منكرين للحياة بعد الموت وفرحين بمتع الدنيا: أيها القوم إنما هو بشرٌ مثلكم، يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون. ولو اتبعتم شخصًا مثلكم لكنتم من الخاسرين. إنه يقول إنكم ستحيون بعد الموت، والواقع أننا إنما نموت ونحيا في هذه الدنيا، ولا حياة لنا بعد الممات. إنه شخص مفتر كذاب. (هذا هو الفساد الذي يدفع أهلَ الدنيا إلى الهلاك ويمنعهم من الخير دائمًا). فدعا نبيُّهم: ربِّ لقد رفضني هؤلاء، فانصُرْني عليهم. فقال الله لـــه: سيندم هؤلاء على ما فعلوا. فأخذهم العذاب وهلكوا. (الآيات ٣٢-٤٢)

ثم جاءت بعدهم أمم، وبعثنا فيها رسولاً تلو رسول، ولكن كلما جاء قومًا رسول منهم كفروا به، فأهلكنا قومًا بعد آخرين. (الآيات ٤٣-٤٥)

وبعد هذه الأحداث كلها بُعث موسى وأخوه هارون، وقد جاءا بالآيات والبراهين، فاستكبر فرعونُ ومَلَؤُه فقالوا كما قال الأولون: هل نتبع بشرَين مثلَنا مع أن قومهما عبيد لنا؟ وكانت النتيجة أنهم هلكوا وبادوا. وآتينا موسى شرعًا مفصلاً ليهتدي به الناس إلى الصراط السوي. ثم أرسلنا ابنَ مريم وأُمَّه كآية، وهيّأنا لهما الملاذ في منطقة عالية صالحة للإقامة تكثر فيها المياه الجارية. (الآيات ٤٦-٥١)

أيها الرسل، كُلوا الطيب من الحلال، واعملوا أعمالاً تتفق مع مقتضى الحال، واتقوه لأنه تعالى خبير بما تعملون. إن كل هؤلاء الرسل أحوالُهم متشابهة ودعاويهم مماثلة، فلم تختلفون إذًا في الله تعالى (الآيتان ٥٢-٥٣)

ولكن الناس كلما جاءهم نبي حرّفوا تعليمه وشوّهوه، وابتدعوا من عندهم مذاهب شتى، برغم أن جميع الشرائع كانت واحدة في أول أمرها. فاترُكْهم في غفلتهم إذ ليس لك أن تمارس الجبر عليهم، وإنما أمرهم بيد الله تعالى. إنهم يظنون أن أموالهم وأولادهم ستزيدهم عزًّا وشرفًا؟ كلا، بل إنها هي التي ستؤدي بهم إلى الدمار. (الآيات ٥٤-٥٧)

إنما المؤمنون الذين لا يبرحون مرتعدين من خشية الله وجاهزين للإيمان بآياته، ولا يشركون به شيئًا؛ ويظنون، رغم قيامهم بصالح الأعمال، أنهم ما زالوا مقصرين وأنهم سيحاسَبون على ذلك أمام الله تعالى. إنهم يتسابقون إلى الحسنات، ويسارعون في الخيرات. بيد أننا لا نتوقع من المرء إلا ما هو في طاقته، وعندما نحكم نحكم بطريق مميز بحيث ينال كل ذي حق حقه دونما نقصان، كما لن يزيغ بصرنا عما يبرئ ساحة أحد من الإجرام. (الآيات ٥٨-٦٣)

إن قلوب هؤلاء في غفلة، فلا يسعون لأن يعملوا صالحًا ويتقدموا في مجال الخير، وعندما نبطش أثرياءهم بالعذاب إذا هم يصرخون. وعندها نقول لهم ما الجدوى من البكاء الآن؟ وكيف يمكن أن نساعدكم اليوم؟ لقد كانت أحكامنا

تتلى عليكم، فكنتم تولّون عنها مدبرين، ولم تتدبروا فيها قط. وكنتم متكبرين وكنتم تستنكرون أحكامنا في نواديكم الليلية. (الآيات ٦٤-٦٨)

ألم يتدبروا فيما قلنا لهم، وهلا فكّروا أن ما قيل لهم قد قيل لآبائهم أيضًا من قبل؟ ألم يروا أن الذي يخاطبهم إنما يعرض عليهم تعليمًا فيه مفتاح نجاحهم، ومع ذلك يرفضونه. يقولون إن به جنونًا. أولم يروا أن ما يقول به هذا المجنون واقع حتمًا كما يتراءى للعيان. الواقع أن أكثرهم يخافون العاقبة التي ينذرهم منها هذا الرسول. لو كانت الحقيقة وفق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض ولهلك الناس. (الآيات ٦٩-٧٢)

إنك لا تسألهم شيئًا، بل الله تعالى يؤيّدك بنصره. إنما تهدي إلى الصراط المستقيم، ولكن هؤلاء يتهربون من السير في الصراط المستقيم. ولولا أنهم سيزدادون شرًّا لعفونا عنهم. ولو أنهم أنابوا إلينا وقت العذاب لرحمناهم، ولكنهم لا يتورعون عن شرورهم وقت العذاب العام، وعندما يأتيهم العذاب الأخير ينهارون يائسين تمامًا. (الآيات ٧٣-٧٨)

ثم يقول الله تعالى للكافرين: ما هو العمل الذي أُعطيتم بسببه أسماعكم وأبصاركم وأفئدتكم؟ هل فكّرتم في ذلك قط؟ هل شكرتم الله على هذه النعم قط؟ هل فكرتم في منافع شتى توجد في اختلاف الليل والنهار والموت والحياة؟ أفلا تفهمون؟ لم تصرّون على قولكم كيف يمكن أن نحيا بعد الموت إذ قد سمعنا بهذا كثيرًا ولكن لم نر ذلك قط؟ (الآيات ٧٩-٨٤)

قُلْ لهم: من ذا الذي يملك كل هذا الكون؟ أليس هو ملِكًا لله تعالى، فلمَ لا تتّعظون إذًا؟ ثم اسْأَلْهم: مَن رب السماوات والعرش العظيم؟ سيقولون هي لله، ومع ذلك لا يفهمون؟ واسألهم مَن بيده ملكوتُ كل شيء ومَن يسمع الدعاء؟ سيقولون هي لله، فقُلْ فلِمَ لا تفهَمون؟ (الآيات ٨٥-٩١)

ثم يقول الله تعالى: اعلموا أنه ليس لله ولدٌ، وليس من دونه إلهٌ، وإلا لبغى الواحد على الآخر. إنه تعالى عالم الغيبِ والشهادةِ (بينما أنكر المسيح عليه السلام معرفته الغيبَ) (انظر مرقس ١٣: ٣٢-٣٣)، فتعالى الله عما تشركون (الآيتان ٩٢-٩٣)

قُلْ يا رب إن نـــزل العذاب على قومي في حياتي فلا تجعلني فيهم، بل افصِلْني عنهم عندها. ثم يقول الله تعالى لرسوله: إننا قادرون على أن ننـــزل عليهم العذاب أمام أعينك، أما أنت فعليك أن تردّ على السيئة بالحسنة، وإذا أثار سبابهم سخطك فعليك أن تدعونا وتقول رب احمِني من وساوس الشيطان، واحفَظْني من أن يتكلم الأشرار أمامي بما هو فوق احتمالي (الآيات ٩٤-٩٩)

إن هؤلاء لن يبرحوا عاكفين على شرورهم إلى أن يأتيهم الموت، فيقولون ربنا ارجعنا إلى الدنيا لنعمل صالحًا. ولكن رجوعهم إلى الدنيا محال. وحين يُحيَون من جديد، ستنقطع أواصرهم كلها، ولن يفلح عندئذ إلا مَن عمل صالحًا في الدنيا. أما الذين لم يعملوا صالحًا فيدخلون جهنم خالدين فيها. وستحرق النارُ وجوهَهم وتسوّدها، ويقال لهم ألستم الذين كنتم تكذّبون آياتي. (الآيات ١٠٠-١٠٦)

فيقولون ربنا إنما هي شقاوتنا التي أدّتْ بنا إلى هذا المصير، وكنا ضالين. ربنا أَرْجِعنا فلن نعود لمثله أبدًا. فيقول الله: ما الجدوى من هذا الكلام الآن؟ كان عبادي يقولون ربنا آمنّا، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، ولم يكن لهم أي ذنب إذ لم يسلبوكم أموالكم، فكنتم تستهزئون بهم حتى نسيتم كل شيء آخر. فاليوم سنأخذ منكم ثأرهم. (الآيات ١٠٧-١١٢)

ثم يسأل الله الظالمين ويقول:كم لبثتم في الدنيا؟ فيجيبون: يومًا أو بعض يوم (ذلك لأن أيام الراحة تبدو قصيرة جدًا حين تحل المصائب). فيقول الله لهم صحيح أنكم لم تلبثوا في الدنيا إلا قليلاً، ولكن ليتكم أدركتم من قبل أن الحياة التي حسبتموها طويلة كانت قصيرة في الحقيقة. (الآيات ١١٣-١١٥)

فيقال لهم هل ظننتم أنكم قد خُلقتم دونما هدف وأنكم لستم مسؤولين أمامنا؟ فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ، لا إله إلا هو، ربُ العرش الكريم. فمن اتخذ من دونه إلهًا لا برهانَ لـــه عليه فسوف يحاسَب من قِبل الله تعالى، ولن يفلح أبدًا. فأَعْرِضْ عن هؤلاء واستغْفِرْه واسترحِمْه عز وجل. (الآيات ١١٦-١١٩)